رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص. ب ٤١٢٣ – تلفون ٣٢٨٣٢

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH . LIBAN B. P. 4123
Tél . 32832

العدد العاشر
تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦
السنة الرابعة

No. 10. Octobire 1956
4 ème Année

مكانة الأدب العربي بين الآداب العالمية

بقلم الدكتور طه حسين

سيدي صاحب الفخامة رئيس الجمهورية

ائذن لي في ان ارفع الى مقامك الكريم اصدق الشكر على هذه الرعاية الكريمة التي تفضلت بها على مؤتمر الادباء ، حين افتتحته وحين تكلفت الجهد ولا خالمشقة بتمامه . واني لأسعد الناس حين يتاح لي ان اتحدث الى هؤلاء الزملاء بمحضر من فخامتكم ، فهذا شرف عظيم اظنني اقل من ان استحقه.

وائذن لي ايضاً في ان اكون كغيري من الادباء طموحاً شديد الطمع منتهز الفرص ، فهذا الفضل الذي اوليته لمؤتمر الادباء مفتتحاً له حين بدأ ومختماً له حين اتم اعماله ، هذا الفضل العظيم لا نكتفي — نحن الادباء — بشكره فالشكر قليل ، والذي اعرفه من اخلاق فخامتكم انكم لا تحفلون كثيراً بالشكر وانما اسجل هذه العناية على انها بادرة خير في هذا العصر الحديث . والادباء مخطئين او مصيبين يعتقدون ان لهم على الدولة حقوقاً وان هذه الحقوق تقتضي من الدولة ان ترعى الادب وان ترعى الذين ينتجونه والذين يقرأونه ، ورعاية فخامتكم لهذا المؤتمر على هذا النحو دليل على ان الدول العربية قد اخذت تعترف للادباء بحقهم عليها ، فنحن نسجل اعتراف فخامتكم بهذا الحق للادباء ، ونسجل انكم ترون ان من حق الأدب والعلم والفن ، والذين ينتجون الادب والعلم والفن على الدولة ، ان ترعاهم وان تتيح لهم الانتاج والابداع في حياة هادئة كريمة تلائم ما يحتملون أمام الشعب وامام الانسانية من تبعات ثقال ..

وقد فرض علي ان اتحدث الى هذا المؤتمر عن موضوع اعترف باني لا احسنه ، وهو مكانة الادب العربي بين الآداب العالمية . ولا بد من ان احاول البر بما وعدت به حين كلفت هذا العمل ، وان كانت هذه المحاولة عسيرة شاقة .

واول شيء احب أن نتساءل عنه هو معنى هذه الكلمة (الآداب العالمية) وما الذي يراد بهذه الكلمة وما الذي يفهمه الناس منها ؟ احب قبل كل شيء ان انحي فكرة شائعة في هذه الايام ، فكرة شائعة مصدرها وهم قديم آن له ان ينجلي عنا ، فالأدب العالمي عند كثير من الناس في هذه الايام انما يدل

هـــذا العدد

تأخر صدور هذا العدد من « الآداب » زهاء اسبوعين ليتاح لنا ان ندرج فيه وقائع المؤتمر الثاني للادباء العرب الذي عقد في دمشق بين ٢٠ و٢٧ ايلول (سبتمبر) الماضي ، هذا المؤتمر الذي يعدّ ظاهرة هامة من ظاهرات النشاط الأدبي في خدمة القضية العربية والفكر العربي .

على هذه الآداب التي تقرأ في كثير من البلاد ومن البلاد الغربية الاوروبية والامريكية خاصة ، ذلك لأن هذه البلاد قد عرفها الناس في هذه العصور قوية متسلطة ناشرة قوتها وسلطانها على كثير من اقطار الأرض ، فهم يشعرون بان الآداب التي تقرأ في هبلاد ذه الدول القوية هي الآداب العالمية ، فالادب الانكليزي مثلاادب عالمي لانه يقرأ في بلاد كثيرة ، يقرأ في بريطانيا العظمى ويقرأ في الولايات المتحدة الأمريكية ويقرأ في بلاد الدمنيون ثم يترجم الى اللغات الاوربية المختلفة ، فهو ادب عالمي في ذلك . ولكننا نظن اولا يزال بعضنا يظن ان ادبنا العربي لأجل ان يكون عالمياً يجب ان يقرأ في مثل هذه البلاد التي تقرأ فيها تلك الآداب الانكليزية ، ومثل هذا يقال بالقياس الى الادب الفرنسي والى الادب الالماني والى الادب الايطالي والى الادب الروسي مثلا ، كل هذه الآداب عالمية لاشك في ذلك لانها تقرأ بنصوصها في بلاد كثيرة وتترجم الى لغات بلاد كثيرة ، فهي آداب عالمية ، انما الخطأ الذي يجب ان نتجنبه منذ الآن هو ان نظن ان ادبنا لن يكون عالمياً الا اذا قرىء في تلك البلاد . الادب العالمي هو الادب — فيما اعتقد — الذي تعيش عليه اجيال كثيرة في اقطار كثيرة من الانسانية ، فالادب العالمي ليس هو الادب الذي يملك البأس والقوة والسلطان ، ولكنه هو الادب الذي يكسب قوته وسلطانه على النفوس وانتشاره في اقطار الارض من طبيعته هو لامن قوة تأتيه من البأس السياسي ، او من القدرة الاقتصادية او من اي مصدر من هذه المصادر التي تتيح للأمم ان تكون قوية متسلطة . فهل ادبنا العربي على هذا النحو ، هل ادبنا العربي عالمي ، وما مكانته بين هذه الآداب العالمية ؟ وواضح جداً اننا عندما نتحدث عن الادب العربي لا نستطيع ان نتحدث عن ادب عصر بعينه ، وانما يجب ان نتحدث عن الادب العربي في جملته ، عن الادب العربي منذ كان لا حيث هو الآن ، فالشيء الذي ليس فيه شك ان ادبنا العربي في عصوره الاولى كان ادباً عالمياً كارقى واقوى ما تكون الآداب العالمية ، هذا لا يختلف فيه اثنان ولا يجادل فيه الا المحمقون ، كذلك ان هذا الادب العربي — واريد بالادب معناه العام — الادب الذي يصور انتاج العقل الانساني في امة من الأمم ، هذا الادب العربي ولغته العربية كان مصدر حياة خصبة قوية دائمة لأمم كثيرة في الارض ، فهو لم يكد يتجاوز جزيرة العرب منذ العصور القديمة حتى ظهور الاسلام ، لم يكد يتجاوز هذه الجزيرة حتى تأثرت به امم اخرى غير الأمة العربية ، وبعد ظهور الاسلام فرض نفسه على العالم القديم كله تقريباً ، فهو قد كان ادب الأمة الاسلامية لا ادب الأمة العربية بمعناها الدقيق بل ادب الأمم التي خضعت للدولة الاسلامية مهما تكن اجناس هذه الأمم ، ومهما تكن لغات هذه الأمم ومهما تكن خصائصها . واحب ان الفت خضراتكم الى فكرة بسيطة ، مقارنة بين الادب العربي والادبين القديمين العظيمين الادب اليوناني والادب اللاتيني ، فقد كان الادب اليوناني في العصور القديمة عالمياً ، وعسى ان يكون اول ادب يستحق هذا الأسم. ذلك انه لم يقتصر على الأمة اليونانية التي كانت تنتجه وتستمتع به ، بل انما تجاوز حدود البلاد اليونانية ، ولاسيما بعد ان انتشر سلطان اليونان في الشرق بعد ان فتح الاسكندر ما فتح من البلاد وظل هذا الادب اليوناني ، وظلت الثقافة اليونانية واللغة اليونانية قوام حياة الانسانية المتحضرة اكثر من عشرة قرون ، وبهذه الطريقة يمكننا ان نقول ان الادب اليوناني هو الادب العالمي الأول من الناحية التاريخية . ففي الارض امم بسطت سلطانها على الأنسانية قبل الأمة اليونانية ، ولكنها لم تستطع ان تصل بهذا السلطان الى اكثر من السلطان السياسي المادي ، ولم تصل الى اعماق النفوس ولا الى دخائل القلوب ولم تحمل افراداً وجماعات غيرها على ان يتكلموا لغتها ويشاركوها في انتاجها ، على حين استطاع الادب اليوناني ان يصنع هذا كله ، فشارك في الانتاج باللغة اليونانية قوم لم تكن بينهم وبين اللغة اليونانية صلة من قبل ، فرضت اللغة اليونانية نفسها بالسياسة اولا وثانياً بقوة هذه اللغة وقوة آدابها وثقافتها فاتخذوا لانفسهم ولعقولهم لغة وشاركوا في انتاجها الادبي كأنهم كانوا من الأمة اليونانية نفسها ، وبرغم هذا كله وبرغم ما اتيح لهذا الادب اليوناني من السيطرة على الشرق القديم كله ، مهما تختلف الأمم التي كانت تعيش في الشرق القديم ، برغم هذا كله لم يستطع الادب اليوناني ان يفرض لغته على الشعوب بحيث تتخذ هذه اللغة لحياتها اليومية وانما فرض لغته وادبه على طائفة بعينها هي طائفة الذين يعملون في السياسة ، وطائفة الذين يعملون في الشئون الثقافية والعلمية ، وظل المصريون مثلا يتحدثون لغتهم التي تطورت فيما بعد الى اللغة

القبطية ، وظل اهل الشام يتحدثون لغتهم الآرامية على اختلاف لهجاتها وظل اهل العراق يتحدثون لغتهم الآرامية اوما نشأ ، او ما انتهت اليه لغتهم البابلية والاشورية القديمة وظل الفرس يتحدثون لغتهم الفارسية . وفي اثناء هذا كله وجدت طوائف من العلماء والادباء تعلمت اللغة اليونانية ، وشاركت في انتاجها ، وشاركت في الانتاج الادبي نفسه قليلا او كثيراً. لم تستطع اللغة اليونانية على قوة الاسكندر ، وعلى قوة القادة والملوك الذين خلفوا الاسكندر ، وعلى قوة الدول التي نشأت عن فتوح الاسكندر، لم تستطع هذه اللغة ان تؤثر في حياة الشعوب تأثيراً عميقاً حقاً ، فظلت الشعوب محتفظة بكثير من لغاتها ، محتفظة بلغاتها المختلفة ، وكانت اللغة اليونانية لغة الثقافة ليس غير ، ومع ذلك ظلت امم تكتب آدابها الخاصة ، وتنتج لغتها الخاصة بلغاتها القديمة في ظل اللغة اليونانية وفي ظل السلطان اليوناني وكتب المصريون كما كتب السوريون في اللغة القبطية وفي اللغة الآرامية علومهم وآدابهم وكتبهم ، في الوقت الذي كانت اللغة اليونانية هي اللغة العالمية التي تسيطر على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة ، كذلك كان حال الأمة اليونانية وحال لغاتها وآدابها . وجاء الرومان بعد اليونان ففرضوا لغتهم على غرب اوروبة ولم يستطيعوا ان يقاوموا اللغة اليونانية في الشرق ، ظلت اللغة اليونانية هي لغة السياسة في الشرق وظلت الشعوب محتفظة بمقوماتها ومحتفظة بلغاتها تنتج في لغاتها وتنتج في اللغة اليونانية احياناً ، ولكنها احتفظت بمقوماتها كاملة ولم تستطع اللغة اللاتينية على قوة الجمهورية الرومانية وعلى بأس السلطان ، سلطان الامبرطورية ، لم تستطع اللغة اللاتينية ان تفرض نفسها الا في غرب اوروبا ، في ايطاليا وفرنسا واسبانيا وبريطانيا العظمى ، لأن هذه البلاد لم تكن لها في تلك الاوقات حضارة بارزة. اما لغتنا العربية فانها لم تكد تتجاوز الجزيرة قبل الاسلام حتى تكلمها كثير من اهل الشام قبل الفتح الاسلامي ، وتكلمها كثير من اهل العراق قبل الفتح الاسلامي ايضاً ، فكانت لغة حديث الى جانب اللغات الاخرى التي لم تستطع اللغة اليونانية ان تمحوها ولا ان تضعها ، وبعد الاسلام ، وبعد ان انتشر القرآن الكريم في البلاد التي فتحت ، نظرنا فاذا الأمور تتغير حقاً واذا التاريخ يأخذ طريقاً جديدة لم نعرفها من قبل ، واذا هذه اللغات التي قاومت اللغة اليونانية والسلطان اليوناني وقاومت اللغة اللاتينية وسلطان الرومان لا تثبت للغة العربية ، لا لأن السلطان العربي فرض على الناس ان يجهلوا لغتهم وان يتخذوا اللغة العربية لغة لهم ، بل لأن هذه اللغة العربية تمتاز بشيء من قوة الطبيعة وتمتاز بشيء من السحر الخاص الذي ينفذ الى القلوب ويسيطر على العقول ويستأثر بملكات الناس. وكذلك لم يأت القرن الثاني ولم ينقض هذا القرن حتى كانت اللغة العربية هي لغة الشعوب في كثير جداً من اقطار الأرض في العراق والشام ومصر وشمالي افريقيا وفي اسبانيا ايضاً ، وكانت كذلك لغة الحديث والانتاج الادبي في هذه البلاد القوية التي قاومت اليونان اشد المقاومة ولم يستطع الرومان ان يقهروها وهي في بلاد الفرس ، اصبحت اللغة العربية لغة حديث ولغة علم وادب وثقافة في البلاد الفارسية ، ووصلت في تلك الاوقات

– التتمة على الصفحة ٨٩ –

الدكتور طه حسين

مكانة الادب العربي

– تتمة المنشور على الصفحة الاولى –

الى بلاد الهند ايضاً والى جزر المحيط كذلك . ثم ننظر فاذا هذه اللغة العربية لم تستطع ان تكتفي بالانتشار وبان تصبح لغة هامة للثقافة والسياسة والادب والحديث ، ولكنها استأثرت بهذه الشعوب او باكثر هذه الشعوب استئثاراً تاماً ، واذا باللغات التي ظلت حية مقاومة لليونان والرومان والفرس من قبل اولئك وهؤلاء ، اذا بهذه اللغات تتضاءل شيئاً فشيئاً ويضيق سلطانها قليلا قليلا حتى تنحصر بالاديرة وفي بعض المحافل الخاصة ، ثم تصبح لغات قديمة ميتة يدرسها العلماء اصحاب البحث التاريخي واصحاب البحث اللغوي ولكن الشعوب تنساها نسياناً تاماً . فالشعب المصري مثلا لا يتحدث اللغة القبطية ، والشعب السوري لا يتحدث اللغة الآرامية والعراق لا يتحدث لغة آرامية ولا يتحدث تلك اللغة التي كان العرب القدماء يسمونها لغة النبطية والتي كانت بقايا من لغة بابل واشور ، كل هذه اللغات اصبحت لغات قديمة ميتة يختص بها العلماء وحدهم ، والشعوب تجهلها جهلا تاماً . ثم لم تكتف اللغة العربية بذلك وانما اثبتت انها لغة لا تكتفي بأن تتسلط وتقهر ولكنها لغة طامحة حريصة على ان تسيغ وتهضم كل ما تستطيع ان تلقاه امامها من انواع البحث والعلم والحضارة على اختلاف انواعها . فكل ما كتبه اليونان واكثر ما كتبه الرومان وكل ما كانت الشعوب الافريقية والاسيوية التي عرفها العرب ، كل هذه الحضارات وكل هذه الثقافات اساغتها اللغة العربية وحولتها الى ثقافة واحدة وحضارة واحدة هي الثقافة العربية والحضارة العربية ، واستطاع شاعر كأبي تمام ان يقول :

بالشام اهلي وبغداد الهوى وان
بالرقمتين وفي الفسطاط اخواني
وما اظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تبلغني اقصى خراسان

هذا الوطن العظيم التي اتسعت رقعته من اقصى الشرق الى اقصى الغرب ، هذا الوطن العظيم تكونت له حضارة واحدة لها لغة واحدة ولها ادب واحد ، وثقافة واحدة وعلوم واحدة بفضل اللغة العربية وبفضل الاسلام .

الأمبراطورية التي انشأها الاسكندر ملكت من الأرض مثل ما ملكه الاسلام او اقل منه كثيراً لانها لم تتجاوز شمال مصر ، والامبرطورية الرومانية ملكت من الارض مثل ما ملكه المسلمون ولكن اليونان لم يستطيعوا ان يؤثروا بلغتهم وادبهم وثقافتهم في الشعوب كما اثر العرب ، والرومان لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً من ذلك بل لم تستطع لغتهم اللاتينية ان تستقر في الشرق بحال من الاحوال ، والدولة الاسلامية خلفت هذه الامبراطورية ، خلفت الامبراطورية التي انشأها الاسكندر وخلفت الامبراطورية التي انشأها الرومان ، ولكنها لم تكن دولة سياسية واقتصادية وسلطان وحسب ، وانما كانت امبراطورية قلوب وعقول واخلاق ودين وهذا كله بفضل هذه اللغة التي استطاعت ان تتغلغل في اعماق الشعوب ، استطاعت ان تمحو ما امامها من اللغات وان تقوم هي مقامها وان تصبح هي اللغة الاصلية في كل هذه الشعوب . والشيء المحقق ان سلطان العربي لم يصنع شيئاً ليفرض هذه اللغة ، بل نحن نعرف اكثر من هذا ، نعرف ان كثيراً من قضاة المسلمين في مصر كانوا يتعلمون اللغة القبطية ليستطيعوا ان يسمعوا الخصوم من الاقباط وليستطيعوا ان يقضوا بينهم عن علم بما يقولون ، وعن علم بما يختصمون فيه ، هذا هو الذي فعله المسلمون حين استقروا في اقطار الأرض التي فتحها الله عليهم وبرغم كل هذا وبرغم كل هذه الاشياء التي ورثتها الشعوب وتوارثتها شعوبها اجيالا ، وبرغم هذا التسامح العظيم الذي امتاز به العرب في حكمهم في جميع الاقطار التي استطاعوا ان يحكموها ، وبرغم هذا كله استطاعت اللغة العربية ان تتجاوز جيلها الذي كان يتكلمها وهو الجيل العربي ، وان تصبح لغة هذه الاجيال الكثيرة من الناس على مر العصور وتطاول القرون . اكثر من هذا : ان هذه اللغة العربية عندما تجاوزت الشرق وتجاوزت البلاد التي كانت تتكلم لغة من جنسها كانت تتكلم اللغات وبينها وبين اللغات السامية شيء من جوار ، هذه اللغة العربية عندما تجاوزت الشرق واستقرت في غرب اوروبا ، في اسبانيا ، لم تصنع شيئاً لتفرض نفسها على المقهورين ، وانما تنافس المغلوبون في تعلمها وفي اتقانها وفي

مشاركة اهلها فيها ومشاركتهم في انتاج ادبهم . وكتب بعض القسس في تلك الاوقات ، القرن الثالث للهجرة ، كتب بعض القسس يأسف ويحزن ويصور قلبه الذي كانت الحسرة تذيبه لأن الشباب المسيحي يهجر اللغة اللاتينية هجراً خطيراً ، ويسرع الى تعلم اللغة العربية ولا يكتب شيئاً في اللغة اللاتينية التي هي لغة المسيحية مع انه محتفظ بمسيحيته . ولم ينس هذا القسيس الذي كتب هذا النص الاشيئاً واحداً هوانه هو نفسه حين كان يكتب باللغة اللاتينية كان متأثراً باللغة العربية ومتأثراً باللغة العربية الممتازة التي كان العرب يرونها اروع ما يمكن للناس ان ينتجوه، فاللغة اللاتينية لاتعرف القافية في شعر ولا في نثر ، وقسيسنا هذا كان يكتب لغته اللاتينية في هذا النص الذي اشرت اليه الآن ، كان يكتبها في سجع لاتيني لم تعرفه اللغة اللاتينية الا منذ عرفت اللغة العربية ووصل سجعها اليها . اكثر من هذا ان الذين تعلموا لغتنا من الأمم المختلفة زاحموا العرب انفسهم على ادبهم وزحموهم في كثير من المواقف ، فالشعراء الذين ملأوا الدنيا شعراً في القرن الثاني للهجرة كان فحولهم من غير العرب ، بشار كان فارسياً ، ابو نواس كان فارسياً ، ابو العتاهية فارسي ، مسلم بن الوليد كان فارسياً ، كل هؤلاء الفحول كانوا من الفرس . ابو تمام يختلف الناس فيه ، وكانوا يرون ان اباه كان رجلا يبيع الخمرة في دمشق. وكان بن الرومي رومياً اسمه ينبئ عن اصله ، كان ابوه رومياً وكانت امه فارسية ، فهؤلاء الناس الذين امتازوا في لغتنا حتى قهروا شعراءنا ، وحتى استأثروا من دون العرب انفسهم بالتفوق بالشعر لم يكونوا عرباً ، والعلم الذي انتج في اللغة العربية لم ينتجه العرب انفسهم ، وانما شاركهم فيه علماء من اجناس كثيرة اخرى ، ويكفي ان نذكر ابن سينا ، وان نذكر الفارابي ، وان نذكر اختلاف الناس في هذه الأيام بابن سينا ، يرونه في تركيا تركياً ، ويراه الفرس فارسياً ، وانا شخصياً لا يعنيني مطلقاً ان يكون فارسياً او تركياً لانه عربي سواء رضي الترك اوالفرس او لم يرضوا، وهوعربي لانه كتب للانسانية تراثه في اللغة العربية ، كتبه الاساسية كتبت في اللغة العربية ، طبه وفلسفته وتلخيصه وشرحه لارسطاطاليس وشرحه لفلسفة ارسطاطاليس ، كل هذا كتب باللغة العربية ، فليكن اصله فارسياً او تركياً ، هذا لا يعنيني مطلقاً ، لأن شخص ابن سينا لا يعنيني ، وانما الذي يعنيني ما تركه يحصى في التراث العربي ، لا التراث الفارسي ، او التراث التركي ، ان كان للترك تراث. ما تمتاز به الثقافة العربية والادب العربي ان هذا الثقافة وهذا الادب كما نعرفها الآن ، وكما نعدها الآن من التراث العربي الذي لا يقبل شكاً ولا جدالا ، وليس كله من انتاج العرب ولكنه انتاج اجناس وامم مختلفة اتقنت اللغة العربية وشاركت فيها وتفوقت احياناً على العرب انفسهم ، فهي حضارة انسانية قبل كل شيء، ثقافتنا انسانية قبل كل شيء، هي عربية لانها كتبت باللغة العربية ، وهي انسانية لانها حفظت التراث الانساني القديم ، ونقلته الى انسانية كانت تجهله ، واتاحت لهذه الانسانية في اوروبا ان تتحضر وان تتثقف وان تعيش الى الآن متحضرة متثقفة منتجة في الحضارة والثقافة متفوقة حتى على العرب انفسهم تفوقاً كثيراً . وبرغم هذا كله فهذا الغرب الاوروبي والاميركي مدين بثقافته للامة العربية اولا وللامة اليونانية بعد ذلك، اكثر من هذا: هذه اللغة العربية حاولت ان تفرض نفسها لا بسلطان السياسة — كما قلت — بل بسلطان الانسانية ، فاتيح لها النجح ولم تجد الا وطناً واحداً حاول مقاومتها ونجح في هذه المقاومة ، هذا الوطن هو الوطن الفارسي ، نجح في هذه المقاومة بعد ثلاثة قرون او اكثر من ثلاثة قرون ، ولكنه اثناء هذه القرون الثلاثة الاولى كان يتخذ العربية لغة حديث ولغة ادب وانتاج علم ، فلما اتيح له النجح فيما بعد واصبحت اللغة الفارسية الحديثة لغة حديث يومي بين الناس ولغة التعامل بين الفرس ، لم يستطع الفرس ان يخلصوا من تأثير اللغة العربية ، ولن يخلصوا منه الى آخر الدهر ، ذلك لسببين بسيطين ، لأن علومهم ظلت تكتب باللغة العربية الى عصور متأخرة جداً ، الى القرن التاسع للهجرة ، ظل الفرس اذا ارادوا ان يكتبوا في العلم كتبوا في اللغة العربية ولأن الشعر الفارسي الذي هو مكتوب باللغة الفارسية انما يقاس ويوزن على اوزان الشعر العربي فالشعر الفارسي اوزانه كلها هي نفس الاوزان العربية، اخذوها عن العرب ، والشاهنامه التي هي صورة لمجد الفرس القدماء والتي هي آية من آيات الادب القصصي الفارسي كلها — على طولها — تجري على وزن بحر عربي من بحور الشعر العربي وهوالبحر المتقارب. كل هذا ان دل على شيء انما يدل على ان ادبنا العربي في عصوره الاولى قد كان عالمياً باوسع معاني هذه الكلمة واقواها ، كان عالمياً

لانه شمل العالم المتحضر كله في ذلك الوقت ، وكان عالمياً لانه فرض نفسه على امم لم تكن تعرفه وكانت لها لغاتها واداباها فنسيت لغاتها وآدابها وشغفت باللغة العربية وآدابها ، وكان عالمياً بنوع خاص لانه حمل امماً كثيرة على ان تشترك في تهيئة هذه الحضارة الانسانية التي تعيش الانسانية عليها الآن . فمن الحمق ومن التعصب الممقوت ان ينكر احد ان العلم الذي ترجمه العرب عن الامم القديمة واضافوا اليه ما اضافوا هو بعينه الذي نقل الى اوروبا اثناء القرون الوسطى واتاح لاوروبا الغربية ان تنهض نهضتها الاولى واتاح لها ان تتحضر شيئاً فشيئاً ، حتى كان فتح القسطنطينية فاتصلت اوروبا بالعلوم اليونانية والثقافة اليونانية اتصالا مباشراً بها بفضل العرب واتصالا غير مباشر ، حتى بعد اتصال الأمم الاوروبية بالحضارات القديمة اتصالا مباشراً لا تزال الى الآن متأثرة بهذه الحضارة العربية ، ومتأثرة بكثير جداً من العلم العربي القديم ولا سيما في علوم الرياضة وفي بعض فنون الجغرافيا . بعد هذا كله هنالك مشكلات اثيرت وما زالت تثار حول هذا الادب العربي القديم الذي نقول بانه ادب عالمي باوسع معاني هذه الكلمة . يقول بعض الأوروبيين ان الادب العربي ادب ساذج تنقصه اشياء كثيرة مما تمتاز به الآداب الغربية ، ونصدقهم نحن او يصدقهم مناكثير في هذا القول فيقولون ان الادب العربي خلا مثلا من الادب التمثيلي وليس في الادب العربي القديم تمثيل وهذا صحيح لاشك فيه ، ولكننا نعرف ان الأدب اللاتيني مثلا لم يكن فيه تمثيل قبل ان يعرف التمثيل اليوناني فنقل الى اللغة اللاتينية وتلامذه اليونان وانشأوا تمثيلهم ، واللغات الاوروبية الحديثة لم تعرف التمثيل الا عندما اتصلت بالتمثيل اليوناني فنقلته وزادت عليه . الأمة العربية لم تعرف التمثيل لسبب بسيط هو انها لم تكن امة يونانية ثم لم تكن لها هذه العبادات وهذه الديانات الوثنية القديمة كالتي للامة اليونانية والتي كانت تقتضيها انواعاً من العبادة منها العبادة بالتمثيل . والأمة العربية لم تترجم التمثيل اليوناني لسبب بسيط هو ان التمثيل اليوناني بالوقت الذي كانت الأمة العربية تترجم فيه كان مقبوراً في الاديرة وفي الكنائس وفي الكتب ، وكان محرماً ان يمثل ومحرماً ان يقرأ ، لأن الديانة المسيحية كانت تحرمه تحريماً قاطعاً وتراه من آثار الوثنية ، والأمة العربية لم تعرف الالياذة والاوذيسه لسبب بسيط لأن الالياذة والاوذيسه لم تكونا معروفتين ولم تكونا منشورتين بل كانتا معدودتين من اعمال الوثنية ، فكانت المسيحية تحرمهما ولم يكن النظر فيهما مباحاً لاحد من الناس . الأدب القصصي ليس في اللغة العربية كما يقال ، هذا ايضاً من الاخطاء الكثيرة الشائعة لأن الادب العربي لا يفقد الادب القصصي ولكن قصصه على طبيعته هو ، أعني على طبيعة العرب هو . والذين يقرأون شعرنا القديم ويقرأون اخبار الحروب وايام الناس وايام العرب ويقرأون النقائض بين جرير والفرزدق والاخطل ، يعرفون ان الادب العربي لم يخل مطلقاً من قصص الابطال والحروب وما الى ذلك من الأشياء التي تصورها الالياذة ، ويصورها الادب القصصي اليوناني . خطأ آخر يقال : وهو ان ادبنا العربي ليس كالأدب الاوروبي الحديث لايشبه الادب الفرنسي والانكليزي ، وليس فيه مثل هذه الاشياء الكثيرة التي توجد في هذه الآداب الحديثة ، فهذا بالقياس الى ادبنا القديم هو الظلم كل الظلم ، لأن القديم عاش في عصور مضت عليها قرون طوال وليس من المعقول ان نكلف ادباً قديماً ان يكون مجارياً ومشبهاً ومطابقاً لمقتضيات العصر الحديث الذي نعيش فيه ، لاننا لا نملك ان نقدم دورة الزمن عن ميقاتها . ادبنا القديم اذن ادب عالمي باوسع معاني هذه الكلمة ، وقد وضعته من زمن طويل في بعض الاحاديث في المرتبة التالية للادب اليوناني القديم ، ووضعته بين هذين الادبين القديمين اللاتيني واليوناني . قلت ان الادب العالمي الاول في العصور القديمة كان في اليونان ويليه الادب العربي ، ثم يأتي بعده الادب الروماني . يقال ان ادبنا العالمي القديم تأثر بكل هذه الآداب ، وهذا صحيح لاشك فيه ، لأن اخص ما تمتاز به الادب العربي واخص ما تمتاز به اللغة العالمية هو انها تأخذ كما تعطي ويجب ان تكون بعرف الثقافات الاجنبية مفتوحة على مصاريعها لكل لغة تريد ان تكون لغة قوية عالمية ، بهذا المعنى الذي قدمته لحضراتكم . فاللغة العربية قد اخذت ثقافة اليونان وحكمة الفرس والهند ، واخذت في المغرب ثقافة اليونان ، هذا كله حق وهو دليل على قوتها ، ودليل على استعدادها للبقاء ، ودليل على استعدادها لأن تكون لغة حضارة انسانية عالمية . اما ادبنا الحديث ، فهل هو عالمي بالمعنى الذي قدمته الآن ؟ ام هو ادب محلي ؟

من احمق الحمق ان يقال ان ادبنا العربي الحديث ادب

محلي وليس ادباً عالمياً ، اولا لأنه ادب ينتجه ويفهمه ويتذوقه مقدار ضخم من اجيال الناس من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي ، واذا كان هذا القسم الضخم من العالم متفقاً في ذوقه وفي عقله وفي شعوره ، يتكلم لغة واحدة ، ويكتب لغة واحدة ، ويفهم ادباً مهما تختلف طبيعته او اشكاله ، فهو ادب عربي يتذوقه كل انسان في هذا الجزء من الارض ، ويتأثر به كل انسان. هذا الادب لايمكن ان يكون ادباً محلياً ، فقد يكون ادباً محلياً لو ان ما ينتج بالشام لا يستطيع المصريون ان يقرأوه ، ولا ان يترجموه ، وحين يكون الادب المصري مستحيل القراءة في الشام او في العراق ، او في مراكش ، فاما وما يكتب في العراق وفي الشام نستطيع قراءته في جميع اقطار الارض العربية ، فلا يمكن ان يشك في ان ادبنا العربي الحديث هو ادب عالمي — وبالمعنى الآن — المعنى الذي انكرته في اول هذا الحديث ، اي ان يكون ادبنا عالمياً تحفل به الأمم الاجنبية الغربية . اعتقد ان ادبنا العربي الحديث قد اخذ ايضاً يصبح ادباً عالمياً بهذا المعنى واخذ الاوروبيون والاميركيون يهتمون له ، ويحتفلون به ، ويكلفون انفسهم جهوداً لا بأس بها في قراءته ، وفي ترجمته الى لغاتهم ، وكان الروسيون اسبق من الاوروبيين الى هذا ، فهم اول من حاول ان يترجم ما كتبه العرب في هذا القرن ، ثم تبعتهم امم اخرى فترجمت بعض الآثار العربية الى لغات مختلفة ، الى الانكليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية ، وبرغم هذا فهناك اشياء تحول بين ادبنا الحديث وبين هذه العالمية التي يطمع فيها كثير من الناس ، هذه الاشياء ، تنقسم الى قسمين اوجزهما لأنني اطلت عليكم .

اما القسم الاول فيأتي منا نحن او من ادبنا ، فادباؤنا يحتاجون الى ان يعتنوا بادبهم اكثر مما عنوا به الى الآن ، محتاجون الى ان يعنوا بادبهم عناية مضاعفة تقتضيهم ان يتقنوا ادبهم القديم قبل ان ينتجوا ادبهم الحديث ، وتقتضيهم ان يفتحوا عقولهم لكل الآداب والثقافات الحديثة مهما يكن مصدرها ، فلو اعتمدنا على الادب القديم وحده لكنا تاريخاً قديماً يعيش في العصر الحديث ، ولو اعتمدنا على الادب الاوروبي الحديث وحده لبرئنا من جنسيتنا ومن تاريخنا كله ، واذن ليس لنا بد من ان نجمع في عقولنا وقلوبنا بين هذا القديم الذي لا يجحده الا جاحد لنفسه ، والذي لا قوام لحديث بدونه ، وبين هذا الحديث الذي هو من مقتضيات الحياة التي نحياها .

يجب ان نكون عرباً ، ويجب ان نعرف كل ما عند الأمم الاخرى ، واذا استطاع ادباؤنا ان يبدأوا بتثقيف انفسهم اوسع ثقافة ممكنة في القديم والحديث ، واعمق ثقافة ممكنة في القديم والحديث ، يوم يستطيعون هذا سيشعرون وسيجدون في انفسهم هذا الشعور الانساني الواسع الذي لا ينبسط في العالم الحديث وحده انما ينبسط الى اعماق الزمان ، ينبسط الى القديم ايضاً ، يومئذ يكون الانتاج العربي انتاجاً انسانياً باوسع معاني هذه الكلمة ، ويوم يكون انتاجنا العربي انتاجاً انسانياً ينسجم فيه القديم بالحديث انسجاماً موسيقياً رائعاً يومئذ يفرض ادبنا العربي الحديث نفسه على اللغات الاجنبية فرضاً ، ويضطر الناس من الاجانب ان يترجموه والى ان يقرأوه في لغاتهم مترجماً ، برغم هذا كله فقد اخذ ادبنا ينتشر شيئاً فشيئاً في اوروبا وهو ينتشر في اوروبا اكثر مما نظن لاننا الى الآن ننتظر ان نرى كتبنا منتشرة في اللغات الاجنبية ولا نرى انفسنا قد انتجنا ادباً عالمياً الا اذا نشر في الصحف ان كتاب فلان قد ترجم الى هذه اللغة ، وهذا شيء لا معنى له مطلقاً. ادبنا اخطر جداً مما نعلم ومما نقدر ، ويكفي ان تطوفوا في اقطار اوروبا واميركا لتروا كتباً عربية لا تخطر لاحد منكم في بال تدرس في الجامعات الاوروبية ، يقرأها طلابها باللغة العربية ويكتبون عنها لاساتذتهم ويعلقون عليها ويتحدثون بها ، ويسعون بعد ذلك الى هذه البلاد العربية ليلقوا اصحابها وكتابها ويتحدثوا اليهم ، ثم يعودون وقد عرفوا عنهم ما استطاعوا ان يعرفوا .

ما الذي نريد اذا كانت آثارنا الآن التي ينتجها شبابنا الآن تدرس في الجامعات وتعرض موضوعات للامتحانات العليا في بعض الجامعات الفرنسية ؟ اليس هذا دليلا ان ادبنا قد اخذ يتجاوز الحدود العربية الى بلاد اخرى غير هذه البلاد العربية ، والى بلادكنا الى وقت قريب نرى انها بلاد القوة والبأس والسلطان؟ ان ادبنا قد اخذ يترجم اذن الى اللغات الاجنبية واخذ يدرس بنصوصه في الجامعات الاجنبية على اختلافها في اوروبا وفي اميركا ، فهو من هذه الناحية يمضي الى الامام في العالمية الحديثة ، ولكنه يجد برغم هذا كله مقاومة خطيرة من الغرب ، وهذا هو القسم الثاني الذي يجب ان نلتفت اليه ، وان نتأهب للدفاع عن انفسنا امام هذه المقاومة التي تأتي من ان الغرب لا يزال الى الآن ينظر الى الأمة العربية على انها امة خضعت لسلطانه ولا يزال يطمع في ان يخضعها لسلطانه السياسي او سلطانه العقلي او سلطانه الاقتصادي ثم

لا يزال ينظر اليها على انها امة من هذه الأمم التي يسمونها من الامم المتخلفة ، فهي اذن محتاجة الى معونة من الغرب ، معونة عقلية واقتصادية وسياسية ، الغرب مؤمن بانه لابد من ان يربينا تربية سياسية ، ولابد من ان يعاوننامعاونة اقتصادية ، ولابد من ان يربي عقولنا واذواقنا ، فهو اذن لا ينظر الينا على اننا انداده بل ينظر الينا على اننا اقل منه خطراً واهون منه شأناً ، وينظر الينا نظرة فيها كثير من الرثاء ، وفيها كثير من الازدراء ، فنحن المستضعفون وهو القوي المتسلط ، ونحن الفقراء وهو الغني الموسر ، ونحن الجهلاء وهو العالم الذي بسط عليه العلم بسطاً ، وكذلك ينظر الينا هذه النظرة ، فاذا قدم اليه كتاب عربي فنظرته الاولى الى هذا الكتاب قبل ان يفتحه وقبل ان ينظر فيه ينصرف عنه ، لأنه كتاب رجل من هذه الامة الضعيفة التي لم تصل بعد الى ان تحفل بها او نسمع اليها . هذا الشعور وهذا القناع الذي يلمسه كل انسان يعرف الغرب ويعاشر الغربيين في بلادنا ، هو الذي يجب ان نتأهب احسن اهبة واقواها لمقاومته ولتبرئة انفسنا منه ، لا ينبغي ان نطمع الغرب فينا ، ولا ان نشعره باننا اقل منه استحقاقاً ان يقرأ ادبنا ، واقل استحقاقاً منه ان يعني الناس بنا ويحتفلوا بما نعمل ونقول ، وسبيلنا الى هذا بسيطة جداً : هو اولا ان نؤمن بانفسنا في غير غرور ، ان نعلم علم الغرب كله في غير احتياط ، يجب ان نعرف كل ما عند الغرب ، وان نجلس الى الغربيين ونتحدث اليهم بعلومهم وآدابهم ، وثقافتهم كأننا منهم ليعرفوا ان ليس بيننا وبينهم فرق في حال من الاحوال ، وان نعتمد على انفسنا في تنمية اقتصادنا ، واشعار الغرب باننا محتاجون اليه كما انه محتاج الينا لأن الحياة تقوم على التبادل لا على التسلط ولا على القهر ، وكذلك في الشؤون السياسية . واذن فادبنا العربي قديمه عالمي كاوسع ما تكون العالمية ، وحديثه قد اخذ يصبح عالمياً بالمعنى الصحيح ولكنه في حاجة الى جهود كثيرة جداً ليفرض نفسه على الغرب ، وليفرض نفسه على الأمم المختلفة ، مهما تكن قوتها ومهما يكن بأسها . والمهم قبل كل شيء هو ان يشعر العربي ، الاديب العربي بأنه انسان لا يعمل لنفسه ، ولا يعمل لوطنه وحده وانما يعمل للناس جميعاً . هو اذن مكره على ان يعلم علم الناس جميعاً ، وعلى ان ينتفع بهذا العلم ، انه مكره على ان ينفع الناس جميعاً ، وسبيلنا الى ذلك كما قلت واقول دائماً انما هو ان نفتح عقولنا وقلوبنا لقديمنا اولا ، ثم للثقافات الحديثة مهما تكن ومهما يكن مصدرها ، ومهما تكن الفروق بينها . يوم نصنع هذا اؤكد لكم ان ادبنا سيكون ادباً عالمياً سواء اكنتم فهمتم من هذه الكلمة معناها الصحيح الذي صورته آنفاً او هذا المعنى الذي يطمع فيه شبابنا عندما يتمنون ان يترجم ادبهم الى اللغات الاجنبية . يوم نكون اقوياء في انفسنا ، اقوياء في تفكيرنا ، اقوياء في حياتنا العقلية ، نعرض انفسنا على الادب الغربي ، نضطر الغرب الى ان يترجمنا كما اضطرنا الغرب الى ان نترجمه الآن ، وانا مطمئن الى اننا آخذون في ذلك ؛ ومؤتمركم هذا دليل على ان الادباء قد اخذوا يشعرون بان لهم حقوقا يجب ان تكسب وان عليهم واجبات ثقال يجب ان تؤدي ، وهم انما يجتمعون ليتحدثوا في هذا كله ، وهذه الحقوق التي يشعرون بانها لهم ، وانها يجب ان تؤدي ، حقوق خطيرة اهملت فيما مضى من الأيام ، ويجب ان لا تهمل منذ الآن ، وتفضل رئيس الجمهورية برعاية هذا المؤتمر دليل على ان الدول اخذت تشعر بحقوق الادباء عليها . بقي ان نشعر نحن بحقوقنا على انفسنا ، بهذه الواجبات الثقال التي يجب ان تؤدي للأمة اولاً وللأدب ثانية وللانسانية بوجه عام ، فليس الاديب هو الذي تخطر له خواطر فيصوغها في الفاظ رائعة واساليب بديعة ، وانما الأديب هو الذي يشعر قبل كل شيء بان عليه تبعة يجب ان يحتملها ، وان عليه مهمة يجب ان يؤديها ، وبأنه مسؤول امام ضميره عن هذا كله اولا ، وامام امته عن هدايته للناس او تضليله لهم ثم امام الانسانية هو مسؤول ان يكون عنصراً نافعاً لا عنصر شر وضلال .

ايها السادة ! . اعتذر اليكم من هذه الاطالة ، ولكني لست الملوم الوحيد فيها ، وانما اللوم على الذين فرضوا علي موضوع هذا البحث ، واؤكد لكم اني لم احدثكم منه الا باطراف قليلة جداً ، ولكنكم ادباء ، والادباء يكتفون بالقليل ويفهمون منه الكثير . وواجبان لابد من ان اؤديهما الآن وما اشك في انكم تشاركونني في تأديتهما ، اما اولهما فشكر صاحب المعالي وزير المعارف على عنايته بالمؤتمر ، وعلى هذه الكلمة الكريمة التي تحدث بها عني ، ولكني كما قلت اعرف ان اخواننا السوريين حكومة وشعباً لا يحفلون بالشكر ولا يلتفتون اليه ، اما الثاني فهو شيء من الوفاء الذي يجب ان تجده القلوب ، وان تؤديه النفوس راضية مطمئنة في كثير من الأمل وفي كثير من الحزن ايضاً ، ذلك ان هذا المؤتمر انما هو المؤتمر الثاني لادباء العروبة ، والمؤتمر الاول قد عمل على جمعه اديب شاعر كبير فقده الادب العربي منذ حين هو المغفور له صلاح اللبكي ، فارجو ان لا ينقضي هذا المؤتمر دون ان يفكر فيه كل اديب من اعضائه ودون ان نرسل الى روحه الكريمة تحية خالصة قوامها الوفاء والحب ، وان نسأل الله ان يشمله بمغفرته وعفوه ، وان يسكنه فسيح جناته — كما يقال في هذه الأيام —

طه حسين